إســـعاف النشاشيبي

للأستاذ داود حمدان

ودعا أيها الجفنان ذاك الشخـ ـص إن الوداع أيسر زاد
واغسلاه بالدمع إن كان طهرا وادفناه بين الحشى والفؤاد
واحبواه الأكفان من ورق الصحـ ـف كبرا عن أنفس الأبراد
واتبعوا النعش بالقراءة والتسـ ـبيح لا بالنحيب والتعداد

إي والله هـذا مقامك يا أديب العرب ، وواحد الدهر ، ويا حبيب المصحف ، وعاشق لغة القرآن ، ويا خليل محمد وخلصان دينه .

وإنه لقليل عليك أن تغسل بالدمع الطهور ، وتدفن بين الحشى والفؤاد ، ولكن ... من أين لنا الدمع وقد جف من هول المصيبة ، وتمزق الحشى وذاب الفؤاد من شدة الحزن وحرارة الأسى ...

أي أديب العرب ! إنك لتجل عن أن يقول مثلي رثاءك[1]، ولن يقول رثاءك الحق إلا من يقول مثل هذه الأبيات ، أو من يقول مثل قولك في شوقي وهنانو ، وهيهات ... وما هذه الكلمة إلا وفاء لحق لزم ، وتنفيس لحزن أقام ولا إخاله يريم ، لتعذر العزاء عنك بسواك ، ومن سواك يسد مسدك ويغني غناءك ؟ وهل تعود الدهر الجود بالأفذاذ ؟ أنت لم يأت نظيرك من ألف سنة ... فإن كانت هذه سنة الدهر ، فيا طول ما ينتظر المنتظرون !

إن العربية ستؤرخ ابتداء فقرها من هذا النمط المجيد بارتفاع روحك الطاهرة إلى الرفيق الأعلى .

أي إسعاف ، لقد كنت والله إسعافاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى : لقد أسعفت اللغة فقالت بلسان المرحوم أمير البيان : (قد أحسن الله إسعافي بإسعاف) ، وأسعفت الدين (بالإسلام الصحيح) مما يفتري عليه المفترون ويطعن في مساواته الطاعنون ، وأسعفت الأخلاق الكريمة فتمثلت بك بشراً سوياً لا يعرف الكذب قط ولا يستطيعه ، ولا الغش ، ولا الرياء ، ولا الجبن ، ولا البخل ، ولا القسوة ، ولا الكبر ، بل كأنما خلقت من الصدق والصراحة والجرأة والكرم والرحمة والتواضع ، وكيف لا تكون كذلك وإمامك محمد وطريقتك القرآن ؟ وأسعفت الفقراء والمحتاجين والغارمين ، فكم من فقير أعطيت ، ومحتاج أغنيت ، وغارم لولاك كان من المفلسين ؟

(١) وهذا المعنى هو الذي أخر هذه الكلمة إلى اليوم .

أقصاها شرقاً إلى أقصاها غرباً ، ومن أقصاها جنوباً إلى أقصاها شمالاً ، واليهود هم اليهود في قلة وذلة ، والعالم ينبذهم نبذ النواة من هنا وهناك ، فهل يمكنهم أن يتغلبوا على المسلمين في بلادهم ؟ وهل يمكن المسلمين أن يناموا على ضيمهم ؟ وهل يرضى الله عن هذا الظلم والبغي فلا يوقع اليهود في شر بغيهم وظلمهم ، ولا يمكن للمسلمين منهم ، لينبذوهم إلى حيث لا يجدون مأوى ، لأن العالم كله قد اجتمع على كراهتهم ، ولم يبق لهم إلا المسلمون الذي يحملونهم على عداوتهم .

ووالله أيها اليهود الجاحدون ، إنا لن ننسى لكم أنا آوينا كم وأنتم ضعاف ، وقد طردكم أهل أوربا من بلادهم ، ففتحنا لكم بلادنا ، وها أنتم أولاء اليوم تحاربوننا لتمكنوا لهم من رقابنا وتكونوا مخالب قطط لهم علينا ، وقد عفونا عنكم بعد إساءتكم الأولى لمسلمي المدينة ، ولن يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين

ووالله أيها اليهود الجاحدون ، إنا لن ننسى أنا نعيش نحن وإخواننا المسيحيون في كل بلد عربي عيشة سمحة كريمة ، وهم يوافقون أولئك المتعصبين من أهل أوربا في الدين ، وكانوا أولى منكم بأن يكونوا مخالب قطط لهم ، ولكنهم أكرم على أنفسهم من أن يكونوا مطايا للطامعين في بلادهم ، أما أنتم فلم ترعوا للوطن العربي حقاً عليكم ، ولم تذكروا إحساننا إليكم ، فانقلبتم أعداء لنا من غير ذنب جنيناه ، وخنتم بلادنا وعهودنا ، وسترون عاقبة هذا البغي ، فتطردكم من فلسطين كما طردناكم من المدينة وما حولها ، والتاريخ يعيد نفسه ...

عبد المتعال الصعيدي